

ما تحاف الاذكىاء
بجواز

النوئل بالانبياء والاولياء

تأليف
السيد عبد الله الصديق الحسنى
من علماء الحديث

الناشر
على رضى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك اللهم حمدا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك ونشكرك على ما أوليتنا من عظيم فضلك وجزيل إحسانك ونسألك أن تجعل أفضل صلواتك وتسليماتك ، وأزكى بركاتك وتحيماتك ، على سيدنا محمد واسطة عقد الوجود والوسيلة العظمى في وصول الخير إلى كل موجود ، وأرض اللهم عن آله الطيبين الطاهرين ، وعن خيار صحابه من الأنصار والمهاجرين .

أما بعد فإني طبعته فيما مضى رسالة صغيرة سميتها انخاف الأذكياء بما ورد في التوسل بسيد الأنبياء وغيره من الصالحين والأولياء جمعت فيها ما تيسر الوقوف عليه إذ ذاك من الآثار الدالة على جواز التوسل وأنه لا إشراك فيه ولا كفر خلافا لما يزعمه الوهابية المنتطعون .

وقد لقيت الرسالة على صغرها رواجاً وإقبالا حتى نكدت نسخها فأردت أن أعيد طبعها مع زيادة فوائد انتقيتها من كتابي « الرد المحكم المتيقن على كتاب القول المبين » في حكم دعاء ونداء الموتى من الأنبياء والأولياء والصالحين » ورتبتها على ما بين .

والله المستول أن يتفح هذه الرسالة من قرأها وبزيل من صدره داء التنطع والتعيب إن كان من أولئك المنتطعين التعصبين ، وأن يوفقه ويهديه ، إنه قريب محبيب .

الباب الأول في ذكر الأدلة

الدليل الأول ، قال الله تعالى في سورة البقرة (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) روى ابن المنذر في تفسيره عن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي عليهم السلام قال لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل عليه السلام فقال يا آدم هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه قال بلى يا جبريل قال قم في مقامك الذي تناجى فيه ربك فجدد وامدح فليس شيء أحب إلى الله من المدح قال فأقول ماذا يا جبريل قال فقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير ثم تبوء بخطيئتك فنقول سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب إني ظلمت نفسي وعميت السوء فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي قال ففعل آدم عليه السلام فقال الله يا آدم من علمك هذا فقال يارب إنك إنما نعتت في الروح ففعلت بشراً سوياً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك (١) مكتوباً بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله فلما لم أر على أنواريك اسم ملك مقرب ولا نبي مرسل غير اسمه علمت أنه أكرم خلقك عليك قال صدقت وقد ثبت عليك وغفرت لك ، وفي الباب حديث مرفوع مستكمل عليه بعد بحول الله .

وقال الآلوسي في روح المعاني فتلقى آدم من ربه كلمات المراد بتلقى الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها فهو مستعار من استقبال الناس بعض الأجرة إذا قدم بعد طول الغيبة لأنهم لا يدعون شيئاً من الأكرام إلا فعلوه وإكرام الكلمات الواردة من الحضرة الأخذ والقبول والعمل بها والمراد في المشهور عن ابن عباس أن هذه الكلمات هي ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا الآية وعن ابن مسعود أنها سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب

إلا أنت ، وقيل رأى مكتوباً على ساق العرش محمد رسول الله فتشفع به وإذا أطلقت الكلمة على عيسى عليه السلام فتطلق الكلمات على الروح الأعظم والحبيب الأكرم صلى الله عليه وسلم فما عيسى بل وما موسى بل وما وما إلا بعض من ظهور أنواره وزهره من رياض أنواره ، وروى غير ذلك أنه وفي البحر المحيط لأبي حيان نحو ذلك مع حكاية أقوال أخرى في تعيين الكلمات وليس بين هذه الأقوال تعارض كما قد يظن لامكان الجمع بينها بأن آدم عليه السلام تلقى تلك الكلمات جميعاً إذ أنها لا تخرج عن كونها أذكراً تشتمل على مدح الله وتمجيده وتوسل إليه بأكرم الخلق عليه واعتراف بالخطيئة فلا داعي إلى ترجيح أي الأقوال على بعض الأقوال على بعض — مع إمكان الجمع بما ذكرناه ، وقد اختار ابن جرير الطبري قول ابن عباس سكن لم يرد غيره ، وإليك عبارته قال بعد حكاية أقوال مختلفة عن مجاهد في تعيين الكلمات ما نص المراد منه .

وهذه الألفاظ التي حكيناها عنه وإن كانت مختلفة الألفاظ فإن معانيها متفقة في أن الله جعل ثناؤه لقي آدم كلمات فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن وتاب بقبوله إياهن وعمله بهن إلى الله من خطيئته فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه وهو قوله « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وليس ما قاله من خائف قولنا هذا من الأقوال التي حكيناها بمرفوع قوله ، ولكنه قول لا شاهد عليه من الحجة يجب التسليم لها فيجوز لنا إضافته إلى آدم وأنه لما تلقاه من ربه عند إنجازه إليه من ذنبه أنه .

وقوله فيجوز لنا إضافته إلى بشر إلى الجمع الذي قدمناه كما لا يخفى على متأمل والله أعلم .

« الدليل الثاني » قال الله تعالى في سورة البقرة (وما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) الآية . روى أبو نعيم في دلائل النبوة من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس قال كانت يهود بنى قريظة والنضير من قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه

وآله وسلم يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا يقولون اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي ألا نصرتنا فينتصرون فلما جاءهم ما عرفوا يريد محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ولم يشكوا فيه كفروا به ولهذا الأثر طرق ذكرتها في الرد المعكم المتين ، وفي تفسير التيساوي ما نصه : قوله يستفتحون على الذين كفروا وذلك أن اليهود قبل مبعث محمد ﷺ ونزول القرآن يستلون به الفتح والنصرة على المشركين إذا قاتلوهم يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نحمد نعمة وصفته في التوراة وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم أم ومثله في تفسير الكشاف ، وفي تفسير الخازن ما نصه : وكانوا يعني اليهود من قبل أي من قبل مبعث النبي ﷺ يستفتحون أي يستنصرون به على الذين كفروا يعني مشركي العرب وذلك أنهم كانوا إذا حاربهم أم ودعاهم مدو يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نحمد صفته في التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما جاءهم ما عرفوا أي الذي عرفوه يعني محمداً ﷺ عرفوا نعمته وصفته وأنه من غير بني إسرائيل كفروا به أي جحدوه وأنكروه بغيا وحسداً ه ونحوه في تفسير البغوي والنسفي ، وفي روح المعاني للآلوسي : وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا نزلات في بني قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه قاله ابن عباس وقتادة والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم به على المشركين كما روى السدي أنهم كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي ﷺ وقالوا اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعه في آخر الزمان إن تنصرنا اليوم على عدونا فينتصرون فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به كنى عن الكتاب المتقدم بما عرفوا لأن معرفة من أنزل عليه معرفة له والاستفتاح به وإيراد الموصول دون الاكتفاء بالاضمار لبيان كمال مكابرتهم ويحتمل أن يراد به النبي ﷺ وما قد يعبر بها عن صفة من يعقل اه المراد منه .

ووجه الدلالة من هذه الآية ظاهر فإن الله سبحانه أقر استفتاح اليهود بالرسول ولم ينكره عليهم وإنما ذمهم على الكفر والجحود بعد إذ شاهدوا من بركة الاستفتاح بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ما لا ينكره إلا من كان أعمى القلب والبصيرة مثلهم ، لسأل الله العاقبة .

« الدليل الثالث » قال الله تعالى في سورة النساء (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) قال الزمخشري في الكشاف : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت جاؤوك تائبين من النفاق متنبصلين عما ارتكبوا فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص وبالقوا في الاعتذار إليك من إبدائك رد قضائك حتى انتصبت شفيعاً لهم إلى الله واستغفروا لوجدوا الله تواباً لعلوه تواباً أي تخاب عليهم ولم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريقة الانكشاف فخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتنبهها على أن شفاعته من اسمه الرسول — من الله يمكن اه

فهذه الآية وإن كانت تولت بسبب المتناقضين المتحاكين إلى الطاغوت — فهي عامة تشمل كل عاص ومقصر ، لأن ظم النفس المذكور فيها يشمل كل معصية ، ثم أنها أعني الآية تدل على الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حال حياته ووفاته لأن كل من فعل النجى والاستغفار وقع في سياق الشرط ، والشغل في سياق الشرط يدل على العموم والاستشفاع في حال الحياة ظاهر ليس فيه خلاف .

وأما في حال الوفاة فالوهابيون يمنونه متوهمين أن الموت يحول دون تحققه وهو غلط ظاهر لأن الأنبياء أحياء في قبورهم برزقون بدليل الكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب فإن الله تعالى قال في حق الشهداء (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) .

وقال أيضاً (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند

رهم برزقون) الآية ولا شك أن الأنبياء أعلى رتبة وأفضل جهادا وأكثر مجاهدة من الشهداء فهم أولى بهذه المزية ، على أن نبينا عليه وآله الصلاة والسلام جمع الله له بين النبوة والشهادة .

وأما السنة فأحاديث بلغت مبلغ التواتر منها حديث الاسراء الذي أخبر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى موسى قائما يصلي في قبره ، ورأى غيره من الأنبياء يصلون أيضا وهذا الحديث متواتر لأنه ورد من طريق بضع وأربعين صحابيا ، ومنها حديث أوس « أفضل أيامكم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على قالوا وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يقولون بليت فقال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنووي والحافظ عبد الغني بن سعيد المقدسي والحافظ أبو الخطاب بن دحية والقرطبي والذهبي وحسنه ابن العربي النعافري والمنذري ، ومن طريقه ما رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء مرفوعا « أكرتوا الصلاة على يوم الجمعة فانه يوم مشهود تشهد ثلاثه وأن أحدا لا يصلي على الا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها قال قلت وبعد الموت قال وبعد الموت إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبى الله حتى برزق » قال المنذري في الترغيب والترهيب استاده جيد ، وقال أبو بصير في الزوائد : استاده صحيح لكنه منقطع ، ونحوه في القول البديع للسخاوي ولا يضر انقطاعه لأن له طريقا تعضده منها الطريق السابق ، بل هو مؤيد بالقرآن كما تقدم في آيتي الشهداء فتعلن الوهايين بالانقطاع ونحوه لا يجديهم شيئا في هذا الموطن ومنها حديث أنس « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » رواه أبو يعلى والبيهقي وصححه ، ومنها أحاديث أخرى ذكرتها في الرد المحكم الثمين .

وأما الإجماع فحكاه الحافظ السخاوي في القول البديع قال بعد أن سرد عدة أحاديث نفيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعرض عليه أعمال أمته وصلاة من صلى منهم عليه وسلامهم — ما نصه : السادسة يؤخذ من هذه

الأحاديث أنه عليه السلام صلى الله عليه وآله وسلم حي على الدوام ، وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه في ليل ونهار ، ونحن نؤمن ونصدق بأنه عليه السلام صلى الله عليه وآله وسلم حي يرزق في قبره وإن جسده الشريف لا تأكله الأرض والإجماع على هذا وزاد بعض العلماء الشهداء والمؤمنين ، وقد صرح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا لم يتغير أجسادهم والأنبياء أفضل من الشهداء جزما ١ هـ

وحكى الإجماع أيضا ابن حزم في المحلى ، ولهذا فهم العلماء الآية على عمومها كما قلنا جاء في تفسير القرطبي ما نصه : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك روى أبو صالح عن علي قال قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحننا على رأسه من ترابه فقال قلت يا رسول الله فسمعنا قولك ووعيت عن الله فوعينا منك وكان فيما أنزل الله عليك ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم الآية ، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر أنه قد غفر لك ١ هـ وقد ذكرت هذا الأثر بإسناده في كتابي الرد المحكم الثمين مع أثر آخر ذكره ابن كثير في تفسيره والسخاوي في القول البديع وغيرها وهو شبيه بهذا الأثر في المعنى مع تعدد القائل واختلاف زمن الفعل ، والمقصود أن الآية دليل على جواز التوسل والاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في سائر الأحوال لأنه في قبره الشريف حي يرزق تعرض عليه أعمال أمته فيدعوا لهم ويستغفروا ، ويأحق به في جواز التوسل كل من ثبت له هذه المزية كالشهداء والعلماء العاملين والأولياء المتقين ونحوهم والله أعلم .

« الدليل الرابع » قال الله تعالى في سورة الإسراء (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) قال البغوي في تفسيره قوله أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة يعني الذين يدعونهم الممتركون أنهم آلهة يعبدونهم قال ابن عباس ومجاهد وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم يبتغون أي يطلبون إلى ربهم الوسيلة أي القربة وقيل الدرجة أي يبتغون إلى الله في طلب الدرجة العليا وقيل الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى وقوله أيهم أقرب معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيبتغون

به وقال الزجاج أيهم أقرب يتفق الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل
الصالح اهـ ونحوه في تفسير الخازن وابن جرير .

تلييه علم من هذه النصوص والآثار التي ذكرناها أن العلماء على اختلاف
مذاهبهم متفقون على جواز التوسل وإنهم لا يرون به بأساً لأنهم حلوا عليه
آيات من القرآن الكريم وفسروها به كما ترى . ولو كان حراماً أو إشراكاً
كما تزعم الوهابية لما استجازوا أن يتجروا على القول في تفسير القرآن بما
هو شرك وضلال ويؤيد هذا قول التقي السبكي في شفاء السقام ، إن إنكار
ابن تيمية للاستغانة والتوسل قول لم يقله عالم قبله .

« الدليل الخامس » روى الحاكم في المستدرک عن عمر بن الخطاب رضي
الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما افتقر آدم عليه
السلام الخليفة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي فقال الله يا آدم
وكيف عرفت محمداً ولم أخلقك قال يا رب لأنك لما خلقتني بيديك ونفخت في
من روحي رفعت رأسي فأريت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله
محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضاف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال
صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي إذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا
محمد ما خلقتك » (١) ورواه الطبراني وزاد فيه ، وهو آخر الأنبياء من
ذريتك » قال الحاكم : صحيح ، ورد عليه الذهبي فقال : بل موضوع ،
والحق أن الحديث ليس بصحيح ولا موضوع بل هو ضعيف فقط كما
صرح به البيهقي في دلائل النبوة ، وقد نقلت عبارته ورددت كلام الذهبي
من ستة وجوه وذكر ما يشهد بالحديث في كتابي الرد المحتكم للمتين
ووجدت له شاهداً يرتقي به إلى درجة الحسن فروي ابن بشران بإسناد
قوي كما قال الحافظ عن ميمونة النضر قال : قلت يا رسول الله متى كنت

(١) من المطائف قول العلامة النجاشي رحمه الله بن علي بن يحيى الترمذي الكبير
بالشامي - متوسلاً :

جرمي عظيم يا غفر واني محمد أرجو التسامح فيه
فيه توسل آدم من ذرية وقد اعتدى من يعتدي بأبيه

نبياً قال : « لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات
وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق
الله الجنة التي أسكنها آدم وجواه فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب
والخيام . و آدم بين الروح والجسد فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش
فرأى اسمي فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرها الشيطان تاباً واشتدنا
باسمي إليه » .

« الدليل السادس » روى الطبراني في معجمه الكبير والأوسط عن أنس
رضي الله عنه قال لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما دخل عليها
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجلس عند رأسها فقال يرحمك الله يا أمي
كنت أمي بعد أمي نجوعين وتشبعين وتعريين وتكسيتين وتمنعين نفسك
طيباً وتطعمينني تريدان بذلك وجه الله والدار الآخرة » ثم أمر أن تغسل
ثلاثاً ثلاثاً فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم بيده ثم خلع قميصه فألبسها إياه وكفنها برد فوقه ثم دعا أسامة بن زيد
وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها
فلما بلغوا الموضع حفره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده وأخرج ترابه
بيده فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاضطجع فيه وقال
« الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها
حجتها ووسع عليها مدخلاً بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فانك أرحم
الراحمين » وكبر عليها أربعاً وأدخلها الموضع هو والعباس وأبو بكر رضي الله
عنهما ، قال الحافظ نور الدين الحشيمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح
غير روح بن صلاح وقد وثقه ابن حبان والحاكم وفيه ضعف اهـ . قلت :
روح بن صلاح المصري ذكره ابن عدي في الضعفاء وقال المدارق قطني ضعيف
وذكره ابن حبان في الثقات وقال الحاكم ثقة مأمون ، علي أن ضعفه خفيف
عند من ضعفه كما يستفاد من عباراتهم ولذا عبر الحافظ الحشيمي بما يفيد خفة
الضعف كما لا يخفى على من مارس كتب الفن ، فالحديث لا يقبل عن رتبة
الحسن بل هو على شرط ابن حبان صحيح .

« الدليل السابع » أخرج الترمذي وابن ماجه في سنتهما والنسائي في عمل اليوم والليلة الطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني قال : « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك » قال : فادعه . قال : « فامرته أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد أني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى اللهم فشفعه في » قال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقتنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنت لم يكن به ضرر قط ، وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر الضرير أن يتوضأ ويصلي ويدعو بالدعاء المذكور ، وفي رواية للحاكم عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به يرد الله علي بصرى فقال : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد أني قد توجهت بك إلى ربي اللهم فشفعه في وشفعه في نفسي » فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر ، والحدیث روايات وألفاظ منها عند ابن أبي خيثمة بأسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما علم الضرير الدعاء المذكور قال له : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » وهذا أذن بالتوسل في سائر الأحوال ثم إن الروايات كلها متفقة على أن الذي دعا هو الرجل الضرير لا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ترجحه البيهقي في دلائل النبوة بقوله : باب ما جاء في تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يضر وما ظهر في ذلك من آثار النبوة .

ثم إن الحديث صحيح صحيحه الترمذي وابن خزيمة والطبراني والحاكم والبيهقي والمنذري والنووي والذهبي وابن حجر والهيتمي والسيوطي ، بل لا خلاف بين المحدثين في صحته ، وما قيل من أن أبا جعفر في سننه ليس هو الخطمي بل هو آخر مجهول ، ليس بشيء ، والصواب أن أبا جعفر هو الخطمي المدني كما جاء مصرحا به في روايات الطبراني والحاكم والبيهقي زاد الطبراني في المعجم الصغير أن اسمه عمير بن يزيد وأنه ثقة وليس من الملقول

أن يجمع الحفاظ على تصحيح حديث في سننه مجهول خصوصا الذهبي والمنذري والحافظ فمحاوله بعض المصريين لتضعيف الحديث مقضى عليها بالقيل والكبير ، فالحديث صحيح بلا شك وهو يدل على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الحالات وفي سائر الأوقات كما بينته وأوضحته ببضعة عشر وجها في كتابي الرد المحكم المثبت ، ويكتفي لبيان ذلك هنا أن نقول : أن العلماء فهموا الحديث على العموم كما هو الواجب في نصوص الشارع فأوردته الترمذي في كتاب الدعوات من سننه والحاكم في الدعاء من مستدركه والبيهقي في كتاب الدعوات وهو مؤلف خاص معتبرين له من جملة الأدعية المشروعة المأثورة ، وأورده ابن ماجه في كتاب الصلاة من سننه وكذا فعل المنذري في الترغيب والترهيب والهيتمي في مجمع الزوائد معتبرين الصلاة فيه والدعاء من جملة التوافل المطلوبة ، وأورده النووي في أذكار الحاجة من كتاب الأذكار معتبرا له من جملة الأذكار التي تقال عند عروض حاجة ، وإرادة قضائها ، وأورده غير هؤلاء كابن خزيمة في صحيحه المرتب على السكتب والأبواب وهذا اتفاق منهم على أن الحديث معمول به في سائر الأوقات والأزمان ولو كان خاصا بذلك الضرير أو بحالة دون حالة أو بوقت دون وقت لم يكن لذكرهم له في كتب الأحكام وغيرها فائدة ، أو لنهبوا على أنه خاص ليس بهام كما فعلوا في غيره من الأحاديث التي تكون خاصة ببعض الحالات هذا وقد نقل ابن تيمية في مجموعة الرسائل الكبرى أن عز الدين بن عبد السلام في فتاويه أجاز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وجعله من خصوصياته وقلده في هذا النقل الشوكاني في الدر المنضيد ، وإن لم يصرح بذلك وناقشه في دعوى الخصوصية ورأى أعني الشوكاني جواز التوسل بالعلماء ونحوهم ، والواقع أن النقل المذكور غلط أو تحريف من ابن تيمية لأنني قرأت التتايي الموصلية لعه ابن عبد السلام فوجدت كلامه في الاقسام على الله بخلقه فهو الذي قال فيه أنه من خصوصيات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لا مطلق التوسل الذي هو سؤال الله بركة فلان أو بجاهه فإن هذا لم يتعرض له ، وقد نقلت عبارته برمتها في الرد المحكم المثبت .

« الدليل الثامن » أخرج البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « حياتي خير لكم تمحدثون ويحدث لكم ووفاتي خير لكم تعرض على أعمالكم فما رأيتم من خير حدث الله وما رأيتم من شر استغفرت الله لكم » قال الحافظ العراقي في كتاب الجنائز من طرح الشريب : اسناده جيد ، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد والمحدث القسطلاني في شرح البخاري : رجال اسناده رجال الصحيح ، وقال الحافظ السيوطي في كتاب الخصائص : اسناده صحيح ، وكذا قال على القاري والشهاب الخفاجي في أول شرحيهما على الشفا ، وله مع هذا نحو عشرين طريقا ذكرت منها ما يزيد على ستة طرق في الرد المحكم المتيقن وبافيه مستوفى في كتاب الامام بما تواتر من حديثه عليه السلام اشقيقنا الحافظ السيد احمد ، وهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن النبي عليه السلام يشفع لأمة بعد انتقاله باستغفاره لهم ، وعلى هذا يجوز التوسل به لأنه استشفاع ، وهو الشفع المشفع المحاب عليه الصلاة والسلام ثم لا يخفى أن عرض الأعمال الذي أثبتته هذا الحديث ونحوه عرض إجمالي لا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله وآله وسلم عارفا بأعمال الأمة وبأفرادهم على سبيل الاحصاء والتفصيل ، والإحاطة الشاملة ، فإن العلم على هذا الوجه من خصوصيات الباري سبحانه وتعالى ولهذا جاء في حديث الخوض الذي رواه البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لينادن ناس من أمتي عن الخوض فأقول يا رب أصيحابي أصيحابي فيقال لا تدري ما أحدثوا بعدك » الحديث أي لا تدري على سبيل التفصيل والإحاطة ، وهذا كما يعلم الواحد منا أحوال الأقطار الإسلامية وعادات أهلها وأخلاقهم وصناعاتهم وما في بلادهم من جبال ومعادن وتلار وغيرها لكنه علم إجمالي لا يشمل كل فرد فرد شمولاً تفصيلياً فلا تعارض بين الحديثين خلافاً لبعض المخرفين المعاصرين .

« الدليل التاسع » أخرج ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشيى هذا فاني

لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك ، صحيحه ابن خزيمة ، وحسنه الحافظ أبو الحسن المقدسي والحافظ العراقي والحافظ ابن حجر ، وله مع هذا طريقان ذكرتهما في الرد المحكم المتيقن ، ولصدقنا العلامة المنطع الشيخ محمد زاهد الكوثري كلامه على هذا الحديث أحيت أن أورده ثنائده قال رحمه الله : في الحديث التوسل بهامه المسلمين وخاصتهم وإدخال الباء في أحد مفعولي السؤال إنما هو في السؤال الاستعلامي كقوله تعالى فاسأل به خبيراً سأل سائل بعباد واقع ، وأما السؤال الاستعصامي فلا تدخل الباء فيه أصلاً إلا على المتوسل به فدونك الأدعية المأثورة فتصور إدخالها هنا في المفعول الثاني إخراج تلك الكلام عن سننه بهوى وصيحة باطل تمجها الاستماع ، وليس معنى الحق الإجابة بل ما يستحقه السائلون المتضرعون فضلاً من الله سبحانه وتعالى ، فيكون عند السائلين سؤلاً لهذا الداعي هذياناً محضاً ، ولا سيما عند ملاحظة ما عطف عليه في الحديث ، وأما زعم أنه ليس في سياق الحديث ما يصلح أن يكون سؤلاً غير ذلك فبما يشير الضحك الشديد والهزء المديد ، فأين ذهب من هذا الزاعم أن تعيذني من النار ... ؟

وكم يكرر الفعل للتوكيد فالسؤل في الفعل الأخير هو السؤل في الفعلين المتقدمين ، بل لو لم تكن تلك الأفعال من باب التوكيد لدخلت في باب التنازع ، فيكون هذا التقيد معتبراً في الجميع على كل تقدير وأما من يحاول رد التوسل بتصور دخوله في الخلف بغير الله فاقم حاول الرد على المصطفى صلوات الله عليه لأنه هو الذي علم صيغ التوسل وفيها التوسل بالأشخاص وأبن التوسل من الخلف ؟ اهـ وهو على اختصاره كلف في رد ما أبداه التوهابية من الاحتمالات والشبهات في هذا الحديث والله أعلم .

« والدليل العاشر » أخرج الطبراني عن أمية بن عبد الله بن خالد ابن أسيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستفتح بصعاليك المسلمين . وفي رواية : يستنصر بصعاليك المسلمين ، قال الحافظ المنذري :

رواه رواية الصحيح وهو مرسل ، قلت لا يضر إرساله لأنه مؤيد بما تقدم من الأدلة وبما يأتي ، على أن المرسل حجة عند المالكية والحنفية وكثير من العلماء كما هو مقرر معلوم .

« الدليل الحادي عشر » أخرج أحمد في مسنده عن شريح بن عبيد قال ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب وهو بالعراق فقالوا عنهم يا أمير المؤمنين قال : لا ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لا بدال بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب » إسناده صحيح غير أن فيه انقطاعاً لأن شريح بن عبيد لم يلق علياً لكن له شواهد ، فروى الحاكم عن عبد الله بن زهير العافقي أنه سمع علي بن أبي طالب يقول « لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال وسبوا ظلمتهم » قال الحاكم صحيح وأقره الذهبي ، وروى الطبراني في الأوسط عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فيهم تسفون ويهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر » قال قتادة لسنا نشارك أن الحسن - يعني البصري - منهم ، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : إسناده حسن والحديث طرق كثيرة أفردت بالتأليف ، ومعنى المثلية في قوله مثل خليل الرحمن أنهم على طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السخاء وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين كما جاء في أحاديث أخرى .

« الدليل الثاني عشر » روى الطبراني عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينوا عباد الله » قال الحافظ الهيثمي : رجاله ثقات ، ورواه البزار وحسنه الحافظ . وروى الطبراني أيضاً عن عتبة بن غزوان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس بها

أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني » وفي لفظ أغينوني فإن الله عباداً لا نراهم ، وقد جرب ذلك ، قال الحافظ الهيثمي : رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم إلا أن يزيد بن علي لم يدرك عتبة ، (١) في هذين الحديثين دلالة على أمرين الأول : جواز الاستعانة والاستغاثة بالخلق فيما يقدر عليه خلافاً للوهابية الذين يجعلون كل استعانة أو استغاثة شركاً أما ما لا يدخل في قدرة الخلق فلا يستعان فيه إلا الله ولا يستغاث إلا به ، وهذا باجماع المسلمين وعليه يعمل ما رواه الطبراني عن عباد بن الصامت قال كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر بن الصديق رضي الله عنه قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » فهذا الحديث إنما أراد الاستغاثة فيما لا يقدر عليه الخلق كما قال ابن تيمية ، على الحديث ضعيف كما بيئته في الرد المحكم المبين ، ولا شك أن أولياء الله وأصفياءه يقدرون على الشفاعة إلى الله بأذنه فالاستعانة بهم أو الاستغاثة على أساس هذا المعنى لا شيء فيها ، الأمر الثاني في الحديثين المذكورين دليل على الصوفية في قولهم برجال الغيب وأنهم موجودون خلافاً لمن نقاهم من العلماء ، وتفصيل ذلك يطلب من مفاظه .

« الدليل الثالث عشر » روى أبو يعلى من طريقين عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لياتين على الناس زمان يخرج الجيش من جيوشهم فيقال : هل فيكم من صاحب محمد صلى الله عليه وسلم فيستنصرون به فينصرون ، ثم يقال هل فيكم من صاحب محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لا فيقال : فمن صاحب أصحابه ؟ فلو سمعوا به من وراء البحر لا توه » قال

(١) وروى ابن الحنفية عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا انقضت داية أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا فإن من وجب في الأرض حاصراً سيجبه » ذكر النووي في الأذكار أنه جرب هذا الحديث وكذا شيخه من قبله فصح معهما .

الحافظ الميثمي رجال الطريقين رجال الصحيح . ففي هذا الحديث دليل على التوسل بالصحابه والاستنصار بهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب الثاني في ذكر الآثار ونحوها

روى الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته - أي لنسيانه لها - كما يأتي - فلقى الرجل عثمان ابن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف انت الميضأة فتوضأ ثم اتيت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي وتذكر حاجتك وروح حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال ، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان ابن عفان فأجلسه معه على المنفسة فقال ما حاجتك فذكر حاجته فقضاهما له ثم قال له ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة وقال ما كانت لك من حاجة فذكرها ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي حتى كلمته في فقال عثمان بن حنيف والله ما كلمته ولكنني شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وذكر حديث الضرير السابق في الباب الأول وهذه القصة صحيحة صحيحها الطبراني ونقل تصحيحه الحافظ المنذرى في الترغيب والحافظ الميثمي في مجمع الزوائد وأقره عليه ، وروى ابن أبي شيبه بإسناد صحيح كما قال الحافظ في التلخيص عن أبي صالح السمان عن مالك الدار - وكان خازن عمر - قال أصاب للناس قحط في زمان عمر رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله استسق الله لأمك فأنهم قد هلكوا فاتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقال له انت عمر فأقرته السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له عليك

الكيس الكيس ، فأثنى الرجل عمر فأخبره فيسكني عمر رضي الله عنه وقال يارب ما آلو إلا ما عجزت عنه ، والرجل هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة كما رواه سيف (١) في الفتوح ، وروى الدارمي في سننه بإسناد لا بأس به عن أبي الجوزاء قال : فحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت انظروا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف فتعلوا فطروا مطراً حتى نبت العشب وسمعت الأبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام التثقي ، فهذه عائشة أم المؤمنين أمرتهم أن يكشفوا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمبالغة في الاستشفاع به كما قال علي الفارسي في شرح مشكلة المصابيح لما تكلم على هذا الأثر وهذه القصة وقعت بعد قصة عمر السابقة .

وفي صحيح البخاري عن أنس أنهم أجدبوا زمن عمر فخرج الناس إلى المصلى فقال عمر رضي الله عنه اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فستقيت وإنا نتوسل إليك بهم بنينا فاستقنا قال فيسقون ، وقد فهم ابن تيمية وتبعه الوهاية أن فعل عمر هذا يدل على منع التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله ، وهو خطأ لوجود .

الأول أن ترك الشيء لا يدل على منعه كما نقرر في الأصول فتترك عمر للتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا دلالة فيه أصلاً على منع التوسل وقد ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً من المباحات فهل دل تركه لها على حرمتها ؟ لم يقل بذلك أحد من العلماء .

الثاني أن الله تعالى يقول (أمن يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف

(١) طعن بعض المعاصرين في رواية سيف بأنه متكلم فيه ، وهذا لا يضير لأن الرجل لأن لم يسكن بلال بن الحارث ، فهو يقينا إما صحابي أو تابعي ، لا شك في ذلك وكفى بأحدما حجة ، أضف إلى ذلك أن عمر لم ينكر عليه توسله ، وهو أحد الخلفاء الراشدين الذين أمرنا بالتأسي بهم .

(السوء) الآية ولا شك أن العباس كان في تلك الحادثة من جملة المضطرين المحتاجين فكان التوسل به أنسب .

الثالث أن عمر أراد بالتوسل بالعباس رضي الله عنهما الاقتداد بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في إكرام العباس وإجلاله ، صرح عمر نفسه بذلك كما روى الزبير بن بكار في الانساب والبلاذري في فتوح البلدان وقد ذكرت نص كلامه في الرد المحكم المشين كما أنه مذكور في فتح الباري وغيره من كتب الحديث .

الرابع : أراد عمر بفعله ذلك أن يبين جواز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الإصلاح ممن يرجى بركته ولذا قال الحافظ في التمعن عقب هذه القصة ما نصه : يستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الإصلاح والخير وأهل بيت النبوة اهـ .

الخامس أراد عمر أن يبين جواز التوسل بالمفضول مع وجود القاضل لأنه كان في ذلك الجمع من هو أفضل من العباس كعلي وعثمان رضي الله عنهما .

السادس أن توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما هو في الحقيقة توسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن العباس إنما توسل به الصحابة لكونه عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومكانته منه قال ابن عبد البر روي من وجوه عن عمر رضي الله عنه أنه خرج يستسقي وخرج معه بالعباس رضي الله عنه فقال اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ونستشفع به فاحفظ فيه لنبيك صلى الله عليه وآله وسلم كما حفظت الغلامين لصالح أبيهما وذكر بنية الخبر ، وروى الزبير بن بكار في الانساب أن العباس لما استسقى به عمر قال اللهم إني لم يزل بلاه إلا بذنبي ولم يكشف إلا بتوبتي وقد توجه القوم بي إليك لمكانتي من نبيك وهذه أيدينا إليك

بالتذنب ونواصينا بالتوبة فاستقمنا الغيث فأرخت السماء مثل الخيال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس .

فهذا يدل على أن التوسل بالعباس توسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحقيقة مع ما في ذلك من إكرام العباس وإجلاله وذلك يرضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدخل السرور عليه في قبره انشريف فظهر من هذه الوجوه أن فعل عمر رضي الله عنه لا دلالة فيه على منع التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الانتقال كما زعم ابن تيمية ولو سلمنا تلك الدلالة جدلاً — على ما يرد عليها من منع ظاهر — فغاية ذلك أن يقال هذا رأي عمر رضي الله عنه وقد خالفه عثمان بن حنيف وعائشة وبلال بن أحرث المزني رضي الله عنهم وإذا اختلفت الصحابة فليس بعضهم أولى بالاتباع من بعض ، بل يجب حينئذ الرجوع إلى الكتاب أو السنة وإذا فعلنا ذلك في هذه المسألة وجدنا حديث الضرب يدل على التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الحالات في الحياة وبعد الممات . ومن أدعى فيه الخصوصية أو التخصيص فعليه البيان ، على أن إقرار عمر بأن توسل بالنبي عند قبره كما تقدم قريباً دليل قاطع على أنه لا يرى منع التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن توسله بالعباس إنما كان توجوه التي أبديناها .

وروى القاضي عياض في الشفا باستاده إلى ابن حميد قال ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين ما السكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) ومدح قوما فقال (لمن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله) الآية وذم قوما فقال (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) الآية وإن حرمة ميتا كحرمة حيا فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : ولم تعرف وجهك عنه وهو وسيتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به

فيشفعك الله قال الله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك) الآية ، وزعم ابن نيمية أن هذه الحكاية مكذوبة وأبده ابن عبد الهادي المقدسي بما أطال به من نقل نصوص التجريح في ابن حميد ، وذلك غلو وإفراط ، والحق أنها ضعيفة فقط وقد عمل المالكية بمقتضاها فصرحوا باستحباب التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يحتفظ عن أحد منهم بكراهته فضلا عن حرمة ، وقد نقلت في الرد المحكم المئين كلام ابن الحاج صاحب المدخل والإمام قاسم العقباني والإمام ابن عرفة والعلامة الشارمساحي وغيرهم من علماء المالكية وأتتهم ، وهب الحكاية مكذوبة كما زعم ابن نيمية في إجماع المالكية على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم غنى عنها ، وإنما اختلفت المالكية في التوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمنعه ابن عبد السلام وطائفة وأجاز ابن عرفة والراجح عندهم كلام ابن عرفة كما بين في غير هذا الوضع .

وروى الخطيب في تاريخ بغداد قال أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسين بن محمد بن رامين الاسترأبادي قال أنبأنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي قال سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال يقول ما همى أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر . يعني السكاظم . فتوسلت به إلا سهل الله لي ما أحب ، والخلال هذا شيخ الخناطة في وقته .

وروى الخطيب أيضا عن إبراهيم الخري أحد أئمة الحديث أنه قال : قبر معروف - يعني السكرخي - الثرياق الحبيب .

وروى أيضا عن عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري قال : سمعت أبي يقول قبر معروف السكرخي عروب لقضاء الحوائج ، ويقال : إن من قرأ عنده مائة مرة قل هو الله أحد وسأل الله تعالى ما يريد قضى الله له حاجته .

وروى أيضا عن أبي عبد الله الهاملي أحد أئمة الحديث أنه قال : أعرف قبر معروف السكرخي منذ سبعين سنة ما قصده ميموم إلا فرج الله همه .

وروى أيضا عن علي بن ميمون قال سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : اني لا تبرك بأبي حنيفة واجيء إلى قبره في كل يوم يعني زائرا فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده لما تبعد عني حتى تقضي .

وقال الحافظ أبو بكر ابن المقرئ في مسند أصبهان : كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في مدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فضايق بنا الوقت فواصلنا ذلك اليوم فلما كان وقت العشاء أتيت إلى القبر الشريف وقالت يا رسول الله الجوع فقال لي الطبراني : اجلس فأما أن يكون الرزق أو الموت فقلت أنا وأبو الشيخ فحضر الباب علوي ففتحنا له فإذا معه غلامان بزيييين يهما شيء كثير فقال يا قوم شكيتم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاني رأيته فأمرني بعمل شيء إليكم ، نقل هذه الحادثة الحافظ السخاوي في القول البديع ، وابن المقرئ والطبراني وأبو الشيخ كلهم من كبار الحفاظ المشهورين ، وذكر الحافظ السخاوي أيضا مما عراه إلى أبي عبد الرحمن الساسي باسناده إلى أبي الخير الأقطع الزاهد قال دخلت المدينة وأنا بفاقة فأثقت خمسة أيام لم أذق ذوقا فتقدمت إلى القبر الشريف وسلمت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقلت أنا ضيفك الليلة يا رسول الله وتخلت وتمت خلف المنبر فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر عن يمينه وعمر عن شماله وعلي بين يديه فحركني على وقال قم قد جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقامت إليه وقبالت بين عيديه فدفع إلي رقيقا فأكلت نصفه فأنقيت فإذا في يدي نصف رغيف وأبو الخير هذا ذكره القشيري في الرسالة وقال : مغربي الأصل سكن تينان وله كرامات وفراسة حادة كان كبير الشأن مات سنة بضع وأربعين وثلاثمائة وذكر من كلامه قوله : ما بلغ أحد إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة ومعاينة الأدب وأداء الترائض وصحبة الصالحين ، ونقل ابن القيم في الكلام على بدعة الرفض من كتاب الكبار وكتاب السنة والبدعة له عن

الحافظ السني مما رواه بإسناده إلى يحيى بن عصفار المعدل أنه حكى عن شيخ دمشقي جاور بالحجاز سنين قال كنت بالمدينة في سنة مجدية فخرجت يوما إلى السوق لأشتري دقيقا بر باعني قال فأخذ الدقاق الرباعي وقال اتعن الشيخين حتى أبيعك الدقيق فامتنعت من ذلك فراجعت مرات وهو يضحك فضجرت منه وقات لعن الله من يلعنهما قال فلطم عيني فساتت على خسدي فرجعت إلى المسجد وكان لي صديق من أهل ميفارقين جاور بالمدينة سنين فساأني عما جرى فأخبرته فقام معي إلى الحجرة المقدسة فقال : السلام عليك يا رسول الله قد جئتكم مظلومين فخذ بأمرنا ثم رجعنا فلما جن الليل نمت فلما استيقظت وجدت عيني صحيحة أحسن ما كانت وذكر بقية القصة فيما حصل لذلك الدقاق علي لعنه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأمانتا علي محبتهما .

وذكر ابن حجر الهيتمي في الزواج قصة أخرى تقرب من هذه وقعت في المدينة أيضا واستشفع فيها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انظرها في آخر كتاب الشهادات من الكتاب المذكور ، وفي أول تاريخ بغداد للحافظ الخطيب في الكلام على مقابر بغداد ومن دفن فيها من العلماء والزهاد وغيرهم ما نصه : وعند المنصلي المرسوم بصلاة العيد كان قبر يعرف بقبر النذور ويقال أن المدفون فيه رجل من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه يبارك الناس بزيارته ويقصده ذو الحاجة منهم لاضاء حاجته .

حدثني القاضي أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي حدثني أبي قال كنت جالسا بحضرة عضد الدولة ونحن غريمون بالقرب من مصلى الأعياد في الجانب الشرق من مدينة السلام نريد الخروج معه إلى همدان في أول يوم نزل المعسكر فوقع طرفه على البناء الذي على قبر النذور فقال لي ما هذا البناء فقلت هذا مشهد النذور ولم أقل قبر لعلي بطريقته من دون هذا واستحسن اللفظة وقال قد علمت أنه قبر النذور وإنما أردت شرح أمره

فقلت هذا يقال أنه قبر عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ويقال إنه قبر عبيد الله بن محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب وأن بعض الخلق أراد قتله خفيا فجعلت له هناك زبية وسير عليها وهو لا يعلم فوقع فيها وهيل عليه التراب حيا وإنما شهر بقبر النذور لأنه ما يكاد ينذر له نذر إلا صرخ وبأع النادر ما يريد ولزمه الوفاء بالنذر ، وأنا أحد من نذر له مرارا لا أحصيتها كثرة فنذورا على أمور متعذرة فبلغتها ولزمني النذر فوفيت به ، فلم يتقبل هذا القول وتكلم بما دل أن هذا إنما يقع منه اليسير اتفاقا فيتسوق العوام بأضعافه ويسميرون الأحاديث الباطلة فيه ، فأمسكت فلما كان بعد أيام يسيرة ونحن معسكرون في موضعنا استدعاني في غدوة يوم ، وقال : اركب معي إلى مشهد النذور فركبت وركب في نفر من حاشيته إلى أن جئت به إلى الموضع فدخله وزار القبر وصلى عنده ركعتين سجد بعدها سجدة أطال فيها المناجاة بما لم يسمعه أحد ثم ركبنا معه إلى خيمته وأقمنا أياما ثم رحلنا ورحلنا معه يريد همدان فبلغناها وأقمنا فيها معه شهورا فلما كان بعد ذلك استدعاني وقال لي أأست تذكر ما حدثتني به في أمر مشهد النذور ببغداد فقلت بلى ، فقال : إني خاطبتك في معناه بدون ما كان في نفي اعتماداً لاحسان عشتك والذي كان في نفي في الحقيقة أن جميع ما يقال فيه كذب فلما كان بعد ذلك بمدينة طرقني أمر خشيت أن يقع وبني ، وعملت فكري في الاحتيال لزواله ولو بجميع ما في بيوت أموالى وسائر عساكرى ، فلم أجد لذلك فيه مذهبا فذكرت ما أخبرتني به في النذر لمقبرة النذور فقلت لم لا أجرب ذلك فنذرت إن كفاني الله تعالى ذلك الأمر أن أحمل إلى صندوق هذا المشهد عشرة آلاف درهم صحاحا فلما كان اليوم جاءني الأخبار بكفاني ذلك الأمر فتقدمت إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف — يعني كاتبه — أن يكتب إلى أبي الريان — وكان خليفته ببغداد — يحملها إلى المشهد ثم التفت إلى عبد العزيز وكان حاضرا فقال له عبد العزيز قد كتبت بذلك الكتاب اه ما ذكره الحافظ الخطيب .

وذكر الإمام الرافعي في كتاب التدوين في ذكر أخبار قزوین ترجمة سلمان بن ربيعة التميمي الباهلي وذكر الخلاف في كونه صحابيا أو تابعيا وذكر أنه دخل قزوین وأنه توفي سنة إحدى وثلاثين يبلنجر من ناحية أرمينية قال : ويقال أنه قتل ثم نقل الرافعي عن دلائل النبوة لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة أن أهل تلك الناحية جعلوا عظامه في تابوت فاذا احتبس عنهم المطر أخرجوه واستسقوا به فيسقون قال ابن جماعة الباهلي يفتخر .

وإن لنا قبرين قبر بلنجر وقبرا بالصين بالك من قبر فهذا الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي بالترك يسقى به القطر

قال : ولو قال يسقى من القطر لكان أولى — أي ليتخلص من الأقوال المغيبة عند متأخري الشعراء . على أن الشطر الثاني من البيت الأول مختل الوزن ولعله من تعريف الناسخ فان نسخة التاريخ التي نقلت منها صرفة جدا ثم قال والقبر الذي بالصين قبر قتيبة بن مسلم الباهلي والذي بالترك قبر سلمان بن ربيعة اه قلت أما سلمان بن ربيعة فكان من ولادة عمر رضى الله عنه والراوين عنه وهو من رجال مسلم له ترجمة في التهذيب وتهذيب التهذيب وغيرهما ، وأما قتيبة بن مسلم فلم أقف الآن على ترجمة له والله أعلم .

وقال الخافظ أبو القرج ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ما نصه :

الباب السابع عشر في ثناء غرباء العباد والأولياء عليه ثم روى بإسناده عن أحمد بن العباس الشامي قال : خرجت من بغداد أريد الحج فاستقباني رجل عليه زر العباد فقال لي من أين خرجت قلت من بغداد خرجت منها لما رأيت فيها من الفساد فخطت أن يحسف بأهلها قال ارجع ولا تخف فإن فيها قبور أربعة من أولياء الله هم حصن هم من جميع البلايا قلت من هم قال أحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وبشر بن الحرث ومنصور بن عمار فرجعت وزرت القبور ، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد وزاد ولم أخرج

تلك السنة ، غير أنه قال في أول القصص خرجت من بغداد وزاد ولم يقل أريد الحج ، ونقل العلامة أبو حامد محمد العربي القاسمي في كتابه مزاة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن ، عن والده المرحوم له بهذا الكتاب وهو العلامة السكيري والولي الشهير أبو المحاسن يوسف بن محمد القصري نزيل فاس ودفن فيها أنه سئل عن قول أبي محمد الشارمساحي رحمه الله زيارة الموتى بترحم الأحياء وقصد الانتفاع بالميت بدعة إلا في زيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وقبور المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين فأجاب بأن ما ذكره الشارمساحي سبقه به غيره وقال ليس من طريق القوم وذكره ابن العربي وقال : لا يزار قبر يفتتح به غير قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، لكن الذي عليه الجمهور وجرى به العمل في الآفاق زيارة قبور الصالحين والانتفاع بهم واقتباس بركاتهم ، إذ هم أبواب الله قال حجة الاسلام في كتاب آداب السفر من الأحياء وكل من يتذكر بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم « لا نشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث ونقل كلام الغزالي في الجواب عنه كما نقل كلام الخافظ في فتح الباري الذي جوز فيه شد الرحلة إلى القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين .

ونقل مثله عن العلامة أبي القاسم العبدوسي المالكي شيخهم ، ثم قال وأما ما يقصد فيها أو يحصل منها فقال الشيخ أبو العباس زروق في قواعده ما صح واتضح وصحب العمل لازم الإباحة كزيارته المقابر فقيل ليس إلا مجرد الاعتبار بها لقوله عليه الصلاة والسلام فانها تذكر الآخرة قيل ولنفعا بالثلاوة والذكر والدعاء الذي اتفق على وصوله كالتصدقة قيل ولانتفاع بها وهو الذي في الأحياء وقد قال الشافعي رضى الله عنه قبر موسى السكاظم الترياق المحرب اه

ثم نقل كلاما في هذا الموضوع إلى أن قال وقد قال الشيخ أبو العباس

ابن عقبة لتلميذه الشيخ أبي العباس زروق أي المدين أفوى مدد الحي أو مدد الميت فقال الشيخ زروق أنهم يقولون مدد الحي وأنا أقول مدد الميت فقال له الشيخ ابن عقبة صدقت لأنه على بساط الحق فالظاهر من كلامهما إن زيارة الميت أنفع وظاهر ما في رسالة القشيري من أن قبر معروف يستشفى به نرياق محروب جوازها عنده ، وفي مدخل ابن الحاج إن كان الميت المذور ممن نرجى بركانه فيتوسل إلى الله تعالى به وكذلك يتوسل بالميت ممن نرجى بركانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يل يبدأ بالتوسل إلى الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم إذ هو العمدة في التوسل والأصل في ذلك كله والتمسوع أنه فيتوسل به صلى الله عليه وسلم ومن تبعه باحسان ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أي بالصالحين منهم ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى لأنه سبحانه قد اجتباهم وشرفهم وكرمهم وكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر فمن أراد حاجته فليذهب إليهم وليتوسل بهم فانهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه وقد تقرر في الشرع وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء وذلك كثير مشهور وما زال الناس من العلماء والأكابر كابرًا عن كابر مشرفًا ومغربًا يحرصون بزيارة قبورهم ويجدون بركة ذلك حسًا ومعنى وقد ذكر الشيخ الإمام أبو عبد الله بن النعمان في كتابه سفينة النجاة لأهل الانجاء في كرامات الشيخ أبي النجاء في أثناء كلامه على ذلك ما هذا لنظفه تحفة ذوو البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبية لأجل التبرك مع الاعتبار فإن بركة الصالحين جارية بعد ما تمهم كما كانت في حياتهم والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم مسموع به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين اهـ ما ذكره ابن الحاج .

وقال الحافظ السخاوي في أواخر المقاصد الحسنة . والمكان المعروف بالمسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب التي وصفها الحافظ العلم البرزالي بأنها خفيرة ديار مصر اهـ وبه انتهى ما أردنا نقله على وجه الاختصار ، وليعلم الناظر في كتابنا هذا أننا قصدنا بما ذكرناه

من الآثار وأقوال العلماء في هذا الباب أبطال دعوى ابن تيمية أنه لم يأت عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا علماء السلف أنه أتى إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو قبر غيره وتوسل به إلى الله وأنهم إنما كانوا يتوسلون به حال الحياة كما فعل عمر في الاستسقاء بالعباس فإنه قال اللهم انا كنا نتوسل إليك بنبينا ففسقنا وانا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ولاشك أن هذه الدعوى من ابن تيمية باطلة كما تبين مما نقلناه عن عثمان بن حنيف وبلال بن الحرث المزني وعائشة والحافظ بن المقرئ وأبي الخير المغربي والخلال وغيرهم ممن نقلنا كلامه معزوا إلى من رواه وقد حذفنا الأسانيد اختصاراً واكتفاءً بذكرها في كتابنا الرد المحكم المثبت .

وفي الأذكار للإمام النووي أثناء الكلام على زيارة القبر الشريف مانعه ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتوسل به في حق نفسه ، ويشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى اهـ .

قال ابن علان الصديقي في شرحه ، لأن التوسل به سيرة السلف الصالح الأنبياء والأولياء وغيرهم اهـ .

تتمية

تقدم في أثر الباقر ص : أن جبريل لقن آدم التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان آدم قد رأى وهو في الجنة اسم النبي مكتوباً فيها ثم نسيه فلما لقنه جبريل ذكره وحين سأله الله تعالى كيف عرف محمداً ؟ أجابه بأنه رأى اسمه مكتوباً ، وهذا هو الواقع . ولم يقل جبريل عرفه به لأنه خلاف الواقع ، لأن جبريل إنما ذكره بعد نسيان .

الفهرس

ص	
١٩	قصة عام الفتق وفتح كوة إلى السماء فوق قبر النبي ﷺ .
١٩	الاستسقاء بعم النبي ﷺ وخطأ ابن نعيمه والوهابية في فهم الموقف وبيان وجوه خطأهم .
٢١	مناظرة للإمام مالك في مسجد رسول الله ﷺ .
٢٢	ترسل الخلال شيخ الحنابلة بقبر موسى بن جعفر .
٢٢	قول بعض أئمة الحديث في قبر معروف الكرخي .
٢٣	توسل الإمام الشافعي بقبر الإمام أبي حنيفة .
٢٣	قصة الخفاف أبا بكر بن المقرئ والطبراني وأبي الشيخ في المدينة .
٢٣	قصة أبي الخير الأقطع الزاهد في المدينة .
٢٤	قصة النفاق الرافض .
٢٥	قبر النذور .
٢٦	الاستسقاء بقبر الباهلي .
٢٧	أقوال العلماء في زيارة قبور الصالحين والتبرك بها .

ص	
٤	الدليل الأول علي جواز التوسل من القرآن الكريم
٥	الدليل الثاني من القرآن الكريم
٧	الدليل الثالث
٨	حياة الأنبياء في قبورهم
٩	الدليل الرابع
١٠	الدليل الخامس قصة سيدنا آدم
١١	الدليل السادس قصة موت فاطمة بنت أسد رضي الله عنهما .
١٢	الدليل السابع قصة الضرر
١٤	الدليل الثامن حديث حيائي خير لكم .. الخ .
١٤	الدليل التاسع دعاء الخروج إلى المسجد
١٥	الدليل العاشر الاستفتاح بصعاليك المسلمين
١٦	الدليل الحادي عشر حديث الابدال
١٦	الدليل الثاني عشر الاستغاثة بعباد الله
١٧	الدليل الثالث عشر الاستنصار بالصحاب والتابعين
١٨	الباب الثاني في ذكر الآثار
١٨	قصة عثمان بن حنيف وصاحب الحاجة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه .
١٨	مجيء رجل إلى قبر النبي ﷺ في عهد عمر رضي الله عنه واستسقاؤه من القحط .